طرائف من العصر المملوكي :

السبعة الشهب

للأستاذ محمود رزق سليم

جرت عادة الشعر ، أو اعتادت الطبيعة الشاعرة في كل أمة ، وفي كل جيل من أجيالها أن تنجب ، وأن تلد لنفسها من نجبائها رسلا يؤدون للناس رسالتها ، ويقضون دينها ، ويوفون للحياة حقها . فيكونون سريرتها النابضة وبصيرتها الوامضة ، وبنودها الخافقة ولسنها الناطقة . ويحيون في جيلهم دولة الشعر والأدب .

ولو أننا تتبعنا العصر المملوكي من أوله إلى آخره ، وهو زهاء قرون ثلاثة ، تضم أجيالا ستة — إذا قدرنا لكل نصف قرن جيلا — لوجدنا في كل جيل منها حلبة من الشعراء ، جالوا في الميدان ، فرسان رهان ، مالكين الأعنة شارعين الأسنة . والأدب اللباب مسلس لهم في الزمام ، مرخ في الخطام . ليصلوا منه إلى الغاية ، ويوفوا على النهاية . ولأدركنا أن الشاعرية المصرية ما كانت قط عقيما ، وأن شعراءها ما كانوا أبداً مقصرين .

وإذا ذكرنا ما كان يحيق بالعصر وأدبائه ، من مثبطات الهمة وموهنات العزيمة ، ومن منغصات العيش ومقعدات الأمل ومونسات الأدب ، ثم رأينا أن شعراءه — بالرغم من هذا — انطلقوا في كل واد ، وسرحوا في كل مسرح ، حتى اتسعت في القول آمادهم ، وبعدت آفاقهم ، وقضوا حق الشعر فحاكوا منه أفانين ، وأدوا رسالة الأدب فأبدعوا منه آيات . لعرفنا أي شعراء وأي أدباء كان هؤلاء الأسلاف .

وترى بين المتعاصرين منهم — فيما ترى — وشائج الأدب موصولة ، وصلاته حافلة ، وروح سارية متوثبة ، ودعوته قائمة منشورة . لا يخلو أحدهم من مطارحة صديق أو معارضة رفيق ، أو مداعبة صاحب ، أو مفاكهة خليل ، أو مسامرة نجي ، أو معابثة شجي . أو مسابقة إلى مكرمة شعرية ، أو مباراة في مأثرة أدبية .

وأولى حلباتهم حلبة الجزار والوراق ، وابن عبد الظاهر والشاب الظريف . ثم حلبة ابن نباتة والحلي والصفدي وابن الوردي والشهاب بن فضل الله . ثم حلبة القيراطي والموصلي وابن مكانس وابن أبي حجلة . — وهكذا لا تكاد تخلص من حلبة إلا إلى أختها ، ولا تغادر طائفة إلا إلى غيرها . وإذا ذهبنا ننوه برجال

للترهب لو تهيأت له الظروف لنشأنه في بيت يقدس التقى والزهد والعفاف .

وإني لشاعر في قرارة نفسي بأن هذا المقال موجه إلى طائفة من الناس تتذوقه ، وقد يقرؤه غيرهم فلا يجدون الحلاوة التي وجدوها . ولقد أحسن لامرتين إذ وجه هذه القصيدة مع قصائد أخرى من نوعها تجاوز الأربعين في ديوانه (أنغام شعرية ودينية Harmonis Poétiques et Religieuses) إلى طائفة خاصة وصفها في مقدمة الطبعة الأولى بقوله :

« في هذه الدنيا قلوب حطمها الألم ، ونبذها المجتمع ، تنزع إلى عالم أفكارها وإلى عزلة أرواحها لتبكي أو تنظر أو تعبد . فهل أطمع أن يدعو أصحابها أشعاري تقدس العزلة كما يقدسونها إلى الشعور بالارتياح نحو أنغامها ، وأن يقولوا أحياناً إذا أصاخوا إليها : « إننا لندعو بأقوالك ، ونبكي بدموعك ، ونبتهل بأناشيدك ؟ » .

لو أن بعض هذه الأرواح التي ليست في هذا العالم مطلقاً تستجيب في سرها لأصواتي الخافتة الضعيفة . ولو أن بعض القلوب التي ما زالت قاسية تتفتح وتذرف دمعة جديدة ؛ ولو أن بعض هاتيك الأرواح الحساسة التقية تفهمني وتعرفني وتبلغ سويداء قلبي وتُنَمِّ بينها وبين نفسها ألحاناً لم أزد على أن ضربت على بعض أوتارها فإن هذا حسبي ، وإن هذا لغاية متمناي ، بل إن هذا لأبعد من أن أرجوه ! »

وإني لأعتز بهذه الكلمة الجياشة بأنبل العواطف الإنسانية في توجيه هذا المقال الذي أرجو مخلصاً أن يكون فاتحة لهذه الموضوعات .

وبعد . . . فهذه أمنية الشاعر كما صورها لامرتين : روح تسبح ، وخيال يحلق ، وقلب يؤمن ، وسعادة تغمر ، ورضا واطمئنان يجملان الحياة .

صبحي ابراهيم الصالح

كل حلبة عادين مآثرهم ، ذاكرين مفاخرهم ، لاحتاج المقال إلى أكثر من مجال .

والسبعة الشهب الذين عنونا بهم المقال ، يكونون حلبة من تلك الحلبات ، أو على وجه أدق هم فريق من حلبة تعاصر رجالها وتعدد أبطالها . وقد اجتمعوا في القاهرة في وقت واحد ، وكان كل منهم يلقب بشهاب الدين وهم سبعة من الشعراء الذين ذاع صيتهم وملأ شعرهم فجاج القاهرة وغمر أسماعها ، حتى أطلق عليهم القاهريون هذه التسمية « السبعة الشهب » وعرفوا بها ، وسجلتها لهم كتب الأدب والتاريخ .

هؤلاء الشهب السبعة هم : الشهاب بن حجر العسقلاني ، والشهاب بن الشاب التائب ، والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب ابن مباركشاه الدمشقي ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازي ، والشهاب المنصوري .

لمت هذه الشهب معا في سماء القاهرة في أواسط القرن التاسع الهجري ، وليسوا أول الشهب اللامعة بها ولا آخرها ، فقد سطع بالقاهرة من الشعراء غيرهم من يدعى « شهاب الدين » مثل شهاب الدين بن العطار المصري المتوفى عام ٧٩٤هـ ، ولكن ميزة هؤلاء الشهابيين في ألقابهم وحرفتهم أنهم تعاصروا واجتمعوا بها فاقترنت ألقابهم ، وأضفى عليهم هذا التعاصر والاجتماع ثوبا من الجلال والشهرة .

وفضلا عما اشتهر به كل منهم على حدة من الفضل ، عقدت المودة أواصرها بينهم — أو على الأقل بين بعض منهم وبعض ، واتصلت بينهم وشائج الأدب وروابط الفن ، فتبادلوا بالشعر مقارضات الثناء ومطارحات الإخاء ، ونمت فيهم مظاهر التعاطف والألفة مع التسابق في مضمار الأدب .

أما شهاب الدين بن حجر العسقلاني فهو قاضي القضاة العالم الفقيه الحافظ الراوية المؤلف المؤرخ ، صاحب كتاب « الدرر الكامنة » و « فتح الباري » و « الإصابة » وغيرها من ذخائر الفقه والتاريخ والحديث . وهو الأديب الشاعر الناثر . وفي إحدى مقالاتنا السابقة جلينا صفحة من أدبه وروينا فيها طرفا من شعره ، ذاكرين أن له ديوان شعر مخطوطا قيما لا يزال قابعا مجفوا في رف من رفوف دار الكتب المصرية . ولا بأس هنا أن نذكر أنه قال الشعر في أغراض عدة منها النبويات والمدائح والإخوانيات والغزل وغيرها . وقد وشح وقطع ، وطارح وورى وألغز وحاجى ، إلى غير ذلك .

ومن لطيف أغزاله قوله :

صب لذيالك بالأشواق معمود   فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناء عن الأهل والأوطان مغترب   وواجد ماله في الصبر موجود
متيم قد بكى بعد الدموع دما   كأنما هو في عينيه مفصود
النار ذات وقود في جوانحه   شوقا وفي خده للدمع أخدود
يا مخجل الشمس بالأشراق إن فتى   طلعت في داره يوما لمسعود
أسرت قلبي ومذ حجبت عن بصري   تيهـا فكان له بالقرب تبعيد

روى أن شهاب الدين بن مباركشاه مدح ابن حجر بقصيدة دالية . وروى أن شهاب الدين الحجازي كان يطارح ابن حجر شعراً .

وكان ابن حجر أول شهاب منهم خبا ضوءه وغاب شعاعه ، وأسلم للمغيب ، وكان ذلك في عام ٨٥٢ هـ وقد رثاه الشهابان الحجازي والمنصوري . فقال أولهما من قصيدة رائية :

كل البرية للمنية صائره   وقفو لها شيئا فشيئا سائره
والنفس إن رضيت بذا ربحت وإن   لم ترض كانت عند ذلك خاسره

ومنها يصفه :

فكأنه في قبره سر غدا   في الصدر والأفهام عنه قاصره
وكأنه في اللحد منه ذخيرة   أعظم بها درر العلوم الفاخره

وذكر الشهاب المنصوري أنه سار في جنازته ، فأمطرت السماء على نعشه ، وقد قرب إلى المصلى ، ولم يكن الوقت وقت مطر فقال :

قد بكت السحب على   قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي   كان مشيدا من حجر

أما شهاب الدين المعروف بالشاب التائب فهو أحمد بن علي ابن محمد القرافي القاهري الشافعي . ذكر السخاوي في الضوء أنه كان أديبا فاضلا جيد الخط ، أخذ العلم والأدب عن ابن

الهمام والشمنى والحصنى ، وقرأ توضيح ابن هشام . وأنه كان يطارح بشعره . وممن طارحهم الشهاب النصورى ومن شعره موريا فى حسناء اسمها شقراء :

سبقت لميدان الفؤاد بحبها شقراء تجذب مهجتى بعنان
فتراكبت حمر الدموع وشهبها مذ جالت الشقراء فى الميدان

والشاب التائب هو ثانى المودعين من الشهب ، فقد توفى عام ٨٦١ هـ .

وبهذه المناسبة نذكر أن هناك شابا تائبا آخر ولد بالقاهرة سنة ٧٦٧ هـ ، واسمه أحمد بن عمر بن أحمد ، ولقبه شهاب الدين أيضاً ، كان يتعاطى العلم حتى عد فى الفضلاء ، ويجلس على موائد الأدب حتى عد فى الأدباء . وكان ينظم الشعر ويميل إلى الصوفية حتى اعتقد فيه بعض الناس ، ومات بدمشق عام ٨٣٦ هـ . روى ذلك السخاوى فى الضوء أيضاً .

أما شهاب الدين بن مبارك شاه ، فهو أحمد بن محمد حسين القاهرى الحنفى . تلقى العلم على ابن الهمام وابن الديرى ، وغيرهما . وصنف بعض الكتب ، ومنها كتب أدبية مثل « السفينة » . وبرع فى نظم الشعر ، قال عنه ابن إياس : « كان من أعيان الشعراء » ، حسن اتصاله بكثير من أعيان عصره ومنهم ابن حجر العسقلانى ، وقد روينا أنه مدحه بقصيدة دالية . ومن شعره يشبب بعشرة بعشرة قوله :

فرع جبين محيا قامة كفل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل هلال صباح بانة ونقا آس إقاح شقيق نرجس در

وله فى القناعة :

لى فى القناعة كنز لا نفاد له وعزة أرطأتنى جبهة الأسد
أمسى وأصبح لا مستعفدا أحدا ولا ضنينا بميسور على أحد

والشهاب بن مبارك شاه هو ثالث من توارى من الشهب ، فقد توفى عام ٨٦٢ هـ .

أما الشهاب الرابع فهو شهاب الدين بن أبى السعود ، وكان هو والشهاب بن صالح كثيرى المطارحة . وقد توفى فى مكة عام ٨٧٠ هـ .

وشهاب الدين بن صالح ، اسمه أحمد بن محمد بن صالح ، قال عنه ابن إياس « وكان عالما فاضلا وأديبا شاعراً ماهراً » ويعرف بابن صالح ، ويضبط السمودى . والسمودى هو جده شمس الدين كان عالما وأديباً مصنفا .

وقد أكب ابن صالح على دراسة علوم الدين والعربية حتى برع فى كثير منها ، متتلمذا على جلة شيوخ عصره مثل القاياتى والشمنى والنويرى . وأقبل على فنون الأدب حتى حذقها ، وأجاد فى نظم الشعر ، فانسجم لفظه ومعناه . وطرق أبواب المديح والإخوانيات ونظم العلوم . وطارح أنداده من كبار الشعراء ويقال إنه كان أرق شعراء عصره نظما . وبفضله صديقه شرف الدين المطار على ابن حجر العسقلانى وابن نباتة المصرى . وكان هو وشهاب الدين بن أبى السعود فرسى رهان . واتصل بأعيان عصره ومنهم الكمال ابن البارزى . وكان ذكيا سريع الإدراك . وقد نظم العقائد النسفية شعرا . ويحدثون عنه أنه هجر الشعر بأخرة وجنح إلى العلوم .

ومن شعره يشبب بمن اسمه « فرج » ويورى ومضمنا :

شكا فؤادى هم الصد يا فرج وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا
واستيأس القلب حتى رحت أنشده
يا مشتكى الهم دعه وانتظر فرجا

ومدح السخاوى صاحب الضوء اللامع ، ومن قوله فيه :

وقد حفظ الله الحديث بحفظه فلا صائم إلا شذى منه طيب
وما زال يملا الطرس من بحر صدره
لآلىء إذ يملى علينا ونكتب

ومات ابن صالح فى عام ٨٧٣ هـ . وهو خامس الشهب ظعنا .

أما سادسهم فشهاب الدين الحجازى ، المولود فى القاهرة عام ٧٩٠ هـ . واسمه أحمد بن محمد بن على الأنصارى الخزرجى الشافعى . كان سريع الحفظ . وقد بدأ حياته التعليمية بدراسة مذهب الإمام الشافعى وحفظ حديث الرسول عليه السلام . وغير ذلك من علوم الدين . ثم أقبل بجماع نفسه على الأدب ، وأجاد فى قرض الشعر حتى طار صيته فى الآفاق ، وطارح العسقلانى ، وراسل الشهاب النصورى ، وغيرهما .

وكان الحجازى خفيف الروح لطيف المعاشرة طريف المحاضرة . ويبدو لنا أنه كان عالى الهمة وثابا إلى المكرمات الأدبية ، فقد روى أنه جمع شعره ونثره فى ديوان . وله مختصر فى شرح

المقامات . وله شرح على الملفات . وصنف كتبا أدبية عدة منها تذكرة فى نحو خمسين مجلدة ، وكتاب قلائد النحر فى جواهر البحور . وكتاب فى الألغاز وكتاب فى الحماقة مرتب على حروف المعجم . — وفى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محلاة بالذهب من كتابه « روض الآداب » وهو مجموعة أدبية مرتبة على خمسة أبواب : المطولات والموشحات والمقاطيع والنثريات والحكايات . ويبدو أنه لم ينجب ، وذلك لقوله :

قالوا إذا لم يخلف ميت ذكرا
ينسى ، فقلت لهم فى بعض أشعارى
بعد الممات أصيحابى ستذكرنى بما أخلف من أولاد أفكارى

ومن شعره :

قصدت رؤية خضر مذ سمعت به فقال لى بلسان الحال ينشدنى
انظر إلى الردف تستغنى به وأنا مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

وقد مات الشهاب الحجازى عام ٨٧٥ هـ عن خمس وثمانين سنة تقريباً ، فرثاه صديقه الشهاب النصورى بقصيدة منها :

لهف نفسى على أفول الشهاب تحفة القوم نزهة الأصحاب
كان فى مطلع البلاغة يسرى فتوارى من الثرى بحجاب
فقدت بره أيادى المعانى ويتامى جواهر الآداب
هطلت أدمع السحاب عليه وقليل فيه دموع السحاب

وبموت الحجازى أصبح الشهاب النصورى وحيداً لا شهاب غيره فقال يرثى زملاءه الستة :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجها بعد رحلة من تجانبوا بالمعانى مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر كانت تحلى بها منهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى الملك أن الأرض قبرهم لود نشقة عرف من شذى الترب

وقد أصبح النصورى من بعدهم شاعر عصره غير منازع ، ورأس أدبائه غير مدافع . واسمه أحمد بن محمد بن خضر السلمى ، ويعرف بالهائم القاهرى . كان جميل الهيئة متعففاً عن الناس . مهر فى نظم الشعر وسلك به أبواب الغزل والوصف والمديح والرثاء وغيرها . وقد عاش بين سنتى ٧٩٩ هـ ، ٨٨٧ هـ ، ومات بعد أن ناف على الثمانين ، وبعد فالج أصيب به فأقعده زمنا . وقد جمع شعره فى ديوان كبير . وتقدم لنا من نظمه أمثلة . ومن قوله فى الشكوى :

ليت شعرى وفى الزمان خطوب وبلاء يختص بالأحرار
هل ليت قضى عليه طبيب من كفيل أو آخذ بالثار

وقال متغزلا فيمن اسمه « شاهين » مع التورية :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم وزاد حسنك بالإحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وعى من جو إخلاصنا إن كنت شاهينا

هؤلاء هم السبعة الشهب . ولو مدنا التاريخ بالكثير من أخبارهم لكان للبحث فيهم مجال أوسع ، ولكن هذه الآثار التى قدمنا عنهم تدل على علو كعبهم ورسوخ قدمهم فى الأدب والشعر ، فهى منهم كالعنوان من الكتاب ، واللمعة من الشهاب .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

وزارة المعارف العمومية

تقبل المطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة وكيل المعارف المساعد بشارع الفلكى بالقاهرة أو توضع باليد بمعرفة مقدميها بالصندوق المخصص للمطاءات بإدارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة الثانية عشرة ظهر ٢٨ يونية سنة ١٩٤٨ عن توريد الأجهزة والأدوات اللازمة لدراسة المغناطيسية والكهرباء فى العام الدراسى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ويمكن الحصول على قائمة المناقصة من إدارة التوريدات بشارع الإنشاء بالقاهرة نظير دفع مبلغ ١٠٠ مليم (مائة مليم)

٩٣٥١